الفصل الثامن
من أسرار حرف الابتداء

حقيقته

ذكر سيبويه أنَّ «من» تكون لابتداء الغاية في الأماكن وما يقوم مقامها ، وتكون للتبعيض كقولك: هذا من الثوب ، وهذا منهم ، كأنَّك قلت: بعضه ، وتكون للتوكيد ، حيث يكون الكلام مستقيمًا بغيرها في مثل قولك: أتاني من رجل ، وما رأيت من أحد ، ولا تخرج المؤكدة عن معنى التبعيض ، فكأنك قلت: لم يأت بعض الرجال والناس [1]. وقد ردَّ صاحب «المفصَّل» كل معاني «من» إلى الابتداء ، فقال: «فـ(من) معناها ابتداء الغاية ، كقولك: سرت من البصرة إلى الكوفة ، وكونها مبعِّضة في نحو: أخذت من الدراهم ، ومبيِّنة في نحو ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ ومزيدة في نحو: ما جاءني من أحد ، راجع إلى هذا» [2] ، إلا أنَّ الكوفيين ومَنْ لَفَّ لفَّهم ذكروا لها معاني عديدة حتى قال في «عدة السالك» ، بعد أنْ ذكر لها عشرة من المعاني: «وزاد قوم معاني أُخر لم نجد بدًّا من تركها لما في كل واحد منها من النظر» [3].

ومعظم هذه المعاني التي ذكرت لـ«من» هي من باب نيابتها عن أخواتها من حروف الجر ، بناءً على ما قرَّروه من أنَّ حروف الخفض ينوب بعضها عن بعض ، وهذا منهم مَيْلٌ إلى الأيسر من القول ، بدلاً من البحث في أغوار النصوص لالتماس الفروق بين معاني الحروف وما تضفيه على سياقها من دلالات خاصَّة تكشف عنها أغراض النظم

---

(١) انظر الكتاب ٤/ ٢٢٤ وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م.
(٢) المفصل ٢٨٣.
(٣) عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك ٣/ ٢٩.

ودواعيه. فهذا مثال لتداخل «من» و«عن» نقله البطليوسي في «الاقتضاب» ، وعلّق عليه ، وهو خير شاهد على إغفال الفروق بين حروف المعاني ، وما تخلعه من دلالاتها على جاراتها «وقال في هذا الباب: (حدثني فلان من فلان ، أي عنه ، ولهيت من فلان ، أي عنه) ، قال المفسر: إنما جاء استعمال (من) ها هنا مكان (عن)؛ لأنّه إذا حدّثه عنه ، فقد أتاه بالحديث من قبله ، كذلك إذا لهي عنه ، فقد لهي من أجله ولسببه ، فتكون (من) الأولى هي التي يراد بها ابتداء الغاية ، و(من) الثانية إنْ شئت جعلتها التي يراد بها الغاية ، وإنْ شئت جعلتها التي بمعنى من أجل» (١).

وهذا إغفالٌ لفارق دقيق مستمد من معنى الحرفين؛ لأنَّ «من» في قولك: حدثت «من» فلان ، تدل على مباشرتك النقل عنه بلا واسطة؛ لأنَّ حديثك كان بدؤه ومنشؤه منه ، وإذا قلت: حدثت «عن» فلان ، فإن «عن» بمعنى المجاوزة والبعد فيها تدل على أنَّك نقلت عنه بواسطة ، ولم تتلق منه الحديث ابتداءً ، وهذا ما أكده الجوهري فيما نقله عنه صاحب اللسان ، حيث قال: «وممَّا يقع الفرق فيه بين (من) و(عن) أنَّ (من) يضاف بها ما قرب من الأسماء ، و(عن) يوصل بها ما تراخى كقولك: سمعت من فلان حديثًا ، وحدثنا عن فلان حديثًا» (٢).

وفي الدر النضيد لمجموعة ابن الحفيد يقول: «إذا استُعمل السماع بكلمة (من) يقتضي أنْ يكون السماع مشافهةً ، بخلاف ما إذا استُعمل بكلمة (عن)» (٣).

---

(١) الاقتضاب ٢/ ٢٧٠ ــ ٢٧١.
(٢) لسان العرب ٥/ ٣١٣٤.
(٣) الدر النضيد ٢٥٧.

«من» بين الحذف والزيادة

لعل المقصود بقولهم «هذا حرف زائد ، أو كلمة زائدة» ، أنَّها زائدة على الأصل في تأدية العبارة لمثل المعنى الذي أريد لها أنْ تؤدِّيه، وليس المراد أنَّها خَلْوٌ من الفائدة ، وإلا فإنَّ إطلاق لفظ الزيادة على نظم القرآن بهذا المفهوم يكون قد جافى إعجازه ، ومن ثمَّ فإنْ قيل إنَّ «من» زائدة هنا أو محذوفة هناك ، فإنَّها دعوة لإعمال القلب والفكر في استجلاء أسرار الحذف والزيادة ، ولا أحسب أنَّ القول بالزيادة للتأكيد ، والحذف للإيجاز ، يمكن أنْ يرتفع إلى المستوى الذي يستلهم بلاغة الذكر الحكيم. ولنبدأ بموضع من مواضع الحذف ، وهو ما اكتفى فيه المفسرون بالاستدلال على صحته دون النفاذ إلى الغرض منه ، وذلك قوله تعالى ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ ﴾ (الأعراف:١٥٥).

قال أبوعبيدة: «مجازه: اختار موسى من قومه ، ولكنَّ بعض العرب يجتازون فيحذفون (من). قال العجاج: تحت التي اختار له الله الشجر» [١] ، وكأنَّ هذا لغة من لغات العرب.

وقال الفراء: «وجاء في التفسير: اختار منهم سبعين رجلاً ، وإنَّما استجيز وقوع الفعل عليهم إذا طُرحت (من)؛ لأنَّه مأخوذ من قولك: هؤلاء خير القوم وخير من القوم ، فلما جازت الإضافة مكان (من) ، ولم يتغير المعنى ، استجازوا أنْ يقولوا: اخترتكم رجلاً» [٢]. ولا يخفى

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٢٩.
(٢) معاني القرآن ١/ ٣٩٥.

أنَّ هذا من الفراء مجرد إثبات لصحة الحذف ، وتعليل له ، وهو ما يجب أنْ نجتازه للبحث عن أسرار الحذف.

وقال السهيلي: «والأصل في هذا التعدِّي بحرف الجر ، وهو (من)؛ لأن المعنى إخراج شيءٍ من شيء ، وإنما حُذف لتضمين الفعل معنى فعل آخر مُتعدٍّ به ، كأنك حين قلت: اخترتُ الرجال ، أردت: نخلت الرجال ونقدتُهم فأخذت منهم زيدًا ، فمن ههنا أسقط حرف الجر»[1]. وأرى – والله أعلم بما نزَّل – أنَّ إسقاط حرف الجر قُصد منه النعي على بني إسرائيل لكثرة تمرُّدهم وعصيانهم ، ودوام مخالفتهم لنبيهم ، حتى كأنه لم يجد فيهم خيارًا غير هؤلاء السبعين ، فهم القوم كل القوم في ميزان الطاعة والصلاح ، وفي ذلك ما فيه من التلميح بكثرة العاصين ، وقلة الصالحين فيهم ، ولا عجب أنْ يقصد القرآن إلى ذلك ، بعد آيات تحدثت عمَّا صنعه بنو إسرائيل في غياب موسى ، وعبادتهم العجل من دون الله ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾(الأعراف: ١٥٠ – ١٥٢).

سياق كهذا يصف تآمر القوم وتعاونهم على عبادة العجل ، والكيد لنبي الله هارون حتى للشروع في قتله ، وقصْر موسى دعاءه بالمغفرة على نفسه وأخيه ، يُشعرك بأنَّ الصالحين في القوم قليلٌ من قليل ، فإذا

---

(١) نتائج الفكر ٣٣٠.

قال: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ أشعرك بأنَّ هؤلاء هم خيار القوم، بل هم كل القوم صلاحًا وطاعةً ، ومن ثم فإنَّ ذكر «من» يذهب بهذا الغرض؛ لأنه يوحي بكثرة الأخيار ، وهؤلاء بعض منهم.

وحين نجيء إلى زيادتها في قوله تعالى: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ ، وجدت سياقًا يبالغ في رفض المشركين لدعوة النبي ، وإصرارًا متناهيًا على عدم الاستماع إلى ما جاء به ، لذلك لم يكتفوا بأنْ تكون قلوبهم في أغلفة ، وفي آذانهم وقر ، حتى جعلوا بينهم وبين النبي حجابًا يحول دون نفاذ القرآن إلى أسماعهم ، وزادوا على ذلك أنْ جعلوا الحجاب بادئًا من الرسول ، وبادئًا منهم ، حتى لا يكون ثمة منطقة خالية يمكن أنْ يملأ الرسول فراغها بصوته ، وهذا ما قامت به «من» خير قيام. ولله در الزمخشريِّ ، حيث كان هو من كشف القناع عن هذا السرِّ فقال: «فإنْ قلتَ: هل لزيادة (من) في قوله ﴿ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ فائدة؟ قلتُ: نعم؛ لأنَّه لو قيل: بيننا وبينك حجاب ، لكان المعنى: إنَّ حجابًا حاصلٌ وسط الجهتين ، وأمَّا بزيادة (من) فالمعنى أنَّ حجابا ابتدأ منَّا وابتدأ منك ، فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها» [1] ، والمقصود من ذلك المبالغة بالتباين المفرط ، كما قال أبوحيان [2].

غير أنَّ ابن المنير في «الانتصاف» لم يرتض ما قاله الزمخشريُّ، ذاهبًا إلى أنَّ وجود «من» قريبٌ من عدمها ، واستشهد لذلك بقوله

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٢.
(٢) انظر البحر المحيط ٧/ ٤٨٤.

تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ ، حيث لم يستعمل فيها «من» (١).

ولا شكَّ أنَّ ما ذهب إليه صاحب الكشاف أقرب إلى بلاغة النظم الحكيم ، وما استدل به ابن المنير لا ينهض حُجةً عليه ، ذلك أنَّ هذا موضع وذاك موضع آخر ، فها هنا قصد المشركون الإشارة إلى التباين المفرط بينهم وبينه ، وكثافة الحواجز والحُجُب التي تباعد بينه وبينهم ، وهناك إخبار من الله لنبيه أنَّه جعل بينه وبين الكافرين حجابًا بحيث لا يؤثر القرآن فيهم ، ولا يصل إلى أسماعهم وقلوبهم ، وليس ثمة ما يدعو إلى المبالغة بشمول الحجاب كُلَّ الفراغ الحاصل بينه وبينهم.

وهذه بديعة أخرى من بدائع الكشاف في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الحجرات: ٢٤) ، حيث إنَّ الذي تنكره الآية من الأعراب الذين نادوا الرسول هو أنَّهم نادوه من جهة بعيدة غير الجهة التي فيها الرسول ، ممَّا استدعى أنْ يرفعوا أصواتهم على طريقة أجلاف البادية دون مراعاة لمقام مَنْ ينادونه ، و«من» هي التي تشير إلى أنَّ المنادِي والمنادَى في جهتين مختلفتين؛ لأنَّ مبدأ النداء ومنشأه من الوراء ، ولو أسقط «من» فقيل: «ينادونك وراء الحجرات» ، لما كان هناك ما يمنع أنْ يكون المنادِي والمنادَى في جهة واحدة وراء الحجرات ، فلا يكون حينئذ في ندائهم ما يدعو إلى الإنكار عليهم ، وهذا نص الكشاف: «والوراء: الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ، و(من) لابتداء الغاية ، وأن المناداة

---

(١) انظر الانتصاف ٣/ ٢٤٢.

نشأت من ذلك المكان ، فإنْ قلتَ: أفرقٌ بين الكلامين؛ بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه؟ قلتُ: الفرق بينهما أنَّ المنادِي والمنادَى في أحدهما يجوز أنْ يجمعهما الوراء. وفي الثاني لا يجوز؛ لأنَّ الوراء تصير بدخول (من) مبتدأ الغاية ، ولا يجتمع على الجهة الواحدة أنْ تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد. والذي يقول: (ناداني فلان من وراء الدار) لا يريد وجه الدار ولا دُبرها ، ولكن أي قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقًا بغير تعيين واختصاص ، والإنكار لم يتوجه عليهم أنَّهم نادوه من البر والخارط مناداة الأجلاف بعضهم لبعض من غير قصد إلى جهة دون جهة» [1].

يؤيد ما قاله الزمخشريُّ قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ (الأحزاب: ٥٣) ، حيث جاءت «من» دالة على وجوب أنْ يكون الحجاب فاصلاً بينهم وبين أزواج الرسول ، ولو سقطت «من» لصح أنْ يكون معهن في جهة واحدة وراء الحجاب ، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾(الحشر: ١٤) ، فـ«من» هذه التي كشفت عن جبنهم وضعف بأسهم ، فهم لا يقاتلون إلا إذا كانت الجُدُر بينهم وبين عدوهم حاجزًا يمنع من الوصول إليهم ، ولا يخرجون إلى عدوهم وراء هذه الجُدُر ، وهو ما يمكن أنْ يُفهم بدون «من».

وممَّا قيل فيه بزيادة «من» قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٥٧.

أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾(النور: ٣٠ – ٣١).

وقد ردَّ الزركشي على الأخفش الذي ادَّعى زيادة «من» في قوله ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ و﴿ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾، بما لا مزيد عليه ، ذاهبًا إلى أنَّها للتبعيض؛ «لأن النظر قد يكون عن تعمُّد وغير تعمُّد ، والنهي إنَّما يقع على نظر العمد فقط ، ولهذا عطف قوله ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾ من غير إعادة (من)؛ لأنَّ حفظ الفروج واجب مطلقًا ، ولأنَّه يمكن التحرُّز منه ، ولا يمكن في النظر ، لجواز وقوعه اتفاقًا ، وقد يباح للخطبة وللتعليم ونحوهما» (١).

وهذا فعل المغفرة يتعدَّى في القرآن إلى الذنوب بنفسه تارةً ، وبـــ«من» تارةً أخرى ، فيبادر أبوعبيدة (٢) إلى القول بزيادة «من» ، على أنَّ الأصل هو تعدِّي الفعل بنفسه ، وإلى مثله ذهب الكسائي وهشام وغيرهما (٣).

ونحن لا ننكر أنَّ الأصل في فعل المغفرة هو التعدِّي بنفسه؛ لأنَّ معناه الستر والتغطية (٤) ، إلا أنَّ زيادة «من» في نظمٍ مُنزَّهٍ عن الفضول يوجب البحث عن الغرض من زيادتها ، ولا يحسن القول بأنَّ إبقاءها وإلقاءها سواء.

وقد حصرت ما جاء فيه فعل المغفرة متعديًا إلى الذنوب بنفسه ،

---

(١) البرهان ٤/ ٤٢٤.
(٢) انظر مجاز القرآن ١/ ٣٦٦.
(٣) انظر الأزهية ٢٢٨.
(٤) لسان العرب ٦/ ٣٢٧٣.

فوجدته قد وقع في القرآن سبع مرات ، ثلاثٌ منها بصيغة المضارع ، وهي جميعًا خطاب للمؤمنين: قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾(آل عمران: ٣١) ، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١) ، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾(الصف: ١٠ - ١٢) ، ورابعٌ منها في طلب المغفرة على ألسنة المؤمنين ، وهي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران: ١٦) ، وقوله ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾ (آل عمران: ١٤٧) ، وقوله ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ (آل عمران: ١٩٣). وما أوصل منه بـ«من» ثلاثة مواضع، وكلها خطاب للكافرين ، وهي قوله تعالى على لسان المرسلين: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾(إبراهيم: ١٠) ، وقوله على لسان مؤمني الجن ، خطابًا لمن لم يؤمن: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأحقاف: ٣١) ، وقوله على لسان نوح عليه السلام خطابًا لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (نوح: ٢-٤).

فهذا الاطِّراد في دخول «من» لدى خطاب الكافرين ، وإسقاطها

في خطاب المؤمنين ، لابد أنْ يكون وراءه غرضٌ يهدف إليه النظم الكريم ، وما ذاك إلا للتفرقة بين الخطابين ، لئلا يُسوَّى بين الفريقين في الوعد ، ولهذا فإنَّه في سور إبراهيم ونوح والأحقاف حين كان الخطاب للكافرين وعدهم بمغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان ، وهو غفران ما بينه وبينهم ، لا مظالم العباد [1]؛ لأنَّ مقام الكافر مقامُ قبضٍ لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجاءه في مغفرة جملة الذنوب [2] ، بخلاف مقام المؤمن، فهو مقام البسط ، وفيوضات الرحمة والفضل. وللسهيلي رأيٌ طريفٌ في ذكر «من» وإسقاطها يستحق أنْ نذكره بنصِّه لوجاهته. يقول: «فإنْ قيل: فما قولكم في نحو قوله تعالى ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ ﴾ ، و﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم ﴾ ، قلنا: هي متعلقة بمعنى الإنقاذ والإخراج من الذنوب ، وإنَّما دخلت لتؤذن بهذا المعنى ، ولكنْ لا يكون ذلك في القرآن إلا حيث يُذكر الفاعل الذي هو المذنب ، نحو (لكم)؛ لأنَّه المنقذ المخرج من الذنوب بالإيمان ، ولو قلت: (يغفر من ذنوبكم) ، دون أنْ تذكر الاسم المجرور ، لم يحسُن إلا على معنى التبعيض؛ لأنَّ الفعل الذي كان في ضمن الكلام ، وهو الإنقاذ ، قد ذهب بذهاب الاسم الذي هو واقع عليه.

فإن قلت: فقد قال ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا سَيِّئَاتِنَا ﴾ ، وقال في سورة الصف ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فما الحكمة؟

فالجواب أنَّ هذا إخبارٌ عن المؤمنين الذين قد سبق لهم الإنقاذ من

---

(١) انظر البرهان ٤/ ٤٢٥ وما بعدها.
(٢) انظر الانتصاف ٣/ ٥٢٧.

ذنوب الكفر بإيمانهم ، ثم وعدوا على الجهاد بغفران ما اكتسبوا في الإسلام من الذنوب ، وهي غير محيطة بهم ، كإحاطة الكفر المهلك بالكافر» [1] .

وممَّا قيل فيه بزيادة «من» قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾(البقرة: ٢٣) ، قياسًا على إسقاطها في قوله جل شأنه ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس: ٣٨) ، وفي قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (هود: ١٣).

يقول صاحب التحرير والتنوير: «والضمير في قوله ﴿ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ يجوز أنْ يعود إلى (ما نزلنا) ، أي: من مثل القرآن ، ويجوز أنْ يعود إلى (عبدنا) ، فإنْ أعيد إلى (ما نزَّلنا) ، أي من مثل القرآن ، فالأظهر أنَّ (من) ابتدائية ، أي سورة مأخوذة من مثل القرآن ، أي كتاب مثل القرآن ، والجار والمجرور صفة لسورة ، ويحتمل أنْ تكون (من) تبعيضية أو بيانية أو زائدة» [2].

ولم يقل لنا: لماذا دخلت «من» الابتدائية أو البيانية أو التبعيضية؟ وهل لزيادتها فائدة أو أنَّ وجوها تعدمها؟

يقول الزركشي: «لمَّا كانت سورة البقرة سَنَام القرآن وأوَّله بعد الفاتحة حسُن دخول (من) فيها ، ليُعلَم أنَّ التحدِّي واقعٌ على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، بخلاف غيرها من السور ، فإنَّه لو دخلها (من)

---

(١) نتائج الفكر ٢٣٢ وما بعدها.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ٣٢٤.

لكان التحدّي واقعًا على بعض السُّور دون بعض» [1].

وعلَّق الدكتور عبدالفتاح لاشين عليه بقوله: «فقد أسقط التعبير القرآني حرف (من) في آيتي التحدّي الأولى والثانية؛ لأنَّ الابتداء والتبعيض غير مراد ، وإثبات (من) في كليهما يدلُّ على أنَّ التحدّي واقعٌ على بعض السُّور دون بعض ، وهذا ما يأباه المعنى ، ولذلك سقطت. أمَّا الآية الأخيرة التي في سورة البقرة ، فقد حسُن فيها دخول (من) ، حيث إنَّ المراد أنْ يكون التحدّي واقعًا على جميع القرآن من أوله إلى آخره ، لذلك ثبتت هنا ، وأسقطت هناك» [2] .

ولم يحدِّد لنا نوع «من» هذه ، وكيف أفادت أنَّ التحدّي واقعٌ على جميع سُور القرآن في آية البقرة ، وتفيد التحدّي ببعض السُّور لو دخلت في آيتي يونس وهود؟ ثم إنَّ آية البقرة وإنْ كانت أولى الآيات الثلاث ترتيبًا في المصحف فإنَّها آخرُها نزولاً ، فكيف فهم المنزل عليهم آيتي هود ويونس قبل أنْ تنزل آية البقرة ، وإنْ كانوا قد فهموا منهما أنَّ التحدّي واقعٌ على جميع سُور القرآن ، فما الذي أضافته آية البقرة إلى ما فهموه؟ لعل خير ما قرأت في التعليل لزيادة «من» في آية البقرة وإسقاطها في آية يونس ، هو ما قاله المرحوم محمد أحمد الغمراوي ، وأسوق النص بطوله لما فيه من عظيم الفائدة: «وقد يظن أنَّ هذا التحدّي الأخير في العهد المدني تكرار للتحدّي الأخير في العهد المكي في آية ٣٨ من سورة يونس ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ، ففي كُلٍّ من الآيتين الكريمتين جاء

---

(١) البرهان ١/ ١١٥.
(٢) من أسرار التعبير في القرآن – حروف القرآن ١١١.

الأمر «فأتوا» يتحدَّى المرتابين بسورة (مثل) القرآن في يونس و(من مثله) في البقرة. فهل لزيادة الحرف (من) مغزى يزيد في قوة التحدّي؟ إنَّ ضمير الجلالة للمتكلم في آية البقرة ، بدلاً من ضمير الرسالة المستتر في فعل الأمر (قل) ، يجعل التحدّي مباشرًا من الله في البقرة ، بدلاً من أنْ يكون من الله بواسطة الرسول في يونس ، وهذا لا شكَّ يجعل وقْع التحدّي أقوى ما يكون ، فلا ينبغي قط أنْ يُفهم قوله تعالى ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ على وجه يجعل الحرف (من) مضعفًا للتحدّي ، فيكون في مغزاه منافيًا لمغزى ضمير الجلالة في قوله تعالى ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ، وهذا ما يكون لو أرجع الضمير في ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ إلى الرسول المكني عنه بـ{عَبْدِنَا} ، بدلاً من القرآن ، بردّه إلى الاسم الموصول (ما) الدال على القرآن في قوله ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ ، فشتان ، ثم شتان، بين التحدّي بسورة من (مثل القرآن) في آخر صور التحدّي الباقي على الدهر ، والتحدّي بسورة (من مثل النبي) في أمّيته ، كما ذهب إليه بعض كبار المفسرين في القديم والحديث. فالمثلية التي هي ركن التحدّي في قوله تعالى ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ هي إذن مثلية القرآن ، كما عليه جمهور المفسرين ، لا مثلية النبي ، كما عليه قليل منهم ، وفي هذه الحالة يمتنع أنْ تكون بيانية ، إذ تصبح زائدة لا مغزى لها؛ لأنَّ (فأتوا بسورة مثله) أصحُّ وأخصر من ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، عند اتحاد المعنى ، وليس في القرآن حرف زائد حذفُه خيرٌ من وجوده ، أو حذفُه ووجودُه سواء ، كما قرره الفخر الرازي في القديم ، والأستاذ الأكبر السابق الشيخ تاج في الحديث ، لكن إذا كانت (من) تبعيضية ، كأنْ قد

قيل (فأتوا بسورة بعض مثله) كان في التحدّي تساهلٌ وإرخاءٌ يزيده قوةً فوق التي يزيدها ضمير الجلالة للمتكلم ، كأنهم لمَّا عجزوا عن المثلية التامة لسورة من القرآن ، طولبوا على وجه التعجيز بسورة تشبه أنْ تكون مثل القرآن أسلوبًا ومعنى ، وهذا لا شكَّ ترقٍّ في التحدّي في آخر صوره ، تجاوز به الذروة التي بلغها في آية سورة يونس» (١).

وتأمَّل كيف ألقيت «من» في مقام الإجمال ليتسق النظم تمام الاتساق في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾(النحل: ٧٠) ، فحيث طُوي بدءُ الخلق وأطواره ، ولم يبيَّن في الآية مبادي العلم ، كذلك طُوي ما يدل على مبدأ الزمن الذي يفتقد فيه العلم ، ثم أبقيت «من» في مقام البسط والتفصيل في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾(الحج: ٥).

فها هنا بيانٌ لمبدأ الخلق ، ومراحل تطوره وانتقاله من الضَّعْف إلى القوة ، ثم دوران عقارب الساعة إلى الوراء لينتهي من حيث بدأ ، كل ذلك في إسهاب اقتضاه مقامٌ يتطلَّب كل وسائل الإيضاح والبيان

(١) الإسلام في عصر العلم ١٥٧ ـ ١٥٨.

لمنكري البعث ، فكانت «من» في قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ﴾ واحدة من حبَّات العقد التي نظمها سلك واحد ، وضمَّ معها من أخواتها ثمانية في حديثٍ ضاف عن مبادئ خلق الإنسان والنبات ، وانتقاله من مرحلة تنتهي ببدء مرحلةٍ أخرى في اتساق عجيب ينطق بالتفرُّد والإعجاز.

وأساس هذا الذي قلته ما جاء في كتاب درة التنزيل: «ذكر في سورة النحل الجملة التي فصلت في سورة الحج ، وكانت لفظه (بعد) لجملة الزمان المتأخر عن الشيء ، قال ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ﴾ ، فأجمل ما فصَّل في السورة الأخرى ، وبعده ﴿خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ ، أي: يعزب عنه في حال الهرم ما كان يعلمه قبل من الحكم ، ويستدركه من الآراء المصيبة ، ويرتكبه من المذاهب القويمة ، كان هذا موضع جمل لا تفصيل معها ولا تحديد ، ولم يكن كذلك الأمر في سورة الحج؛ لأنَّه قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ ، يعني: أصلكم ، وهو آدم – عليه السلام – ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾: أولاده ، ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ ، فذكر تفصيل الأحوال ومباديها ، فقال: من كذا ، ومن كذا ، لابتداء كل حال ينتقل منه إلى غيره ، فبنى ذكر الحال التي ينتقل فيها من العلم إلى فقده على الأحوال التي تقدَّم ذكرها ، فكما حدَّد أوائلها بـ(من) ، كذلك حدَّد الحال الأخيرة المنتقلة عمَّا قبلها بـ(من) ، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ﴾ ، أي فقد العلم من بعد أنْ كان عالمًا ،

فباين الموضع الأول لذلك» [1].

وهذه آياتٌ ثلاثٌ من مشتبه النظم سُبق «بعد» في إحداها بـ«من»، وخلت اثنتان منها ، فالتي زيدت فيها «من» هي قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(البقرة: ١٤٥).

واللتان أسقطت منهما هما قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾(البقرة: ١٢٠) ، وقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾(الرعد: ٣٧) ، وإذا فتشت عن سرٍّ وقوع «من» في الآية الأولى دون أختيها ، وجدت للأولى سياقًا يغاير سياق الأخريين ، فالأولى في تشريع خاص بتحويل القبلة ، اتخذه أهل الكتاب وسيلة للتشكيك والتسلل إلى قلوب ضعاف الإيمان ، وهو يقتضي حسمًا في تحديد بداية الزمن الذي يُعمل فيه بهذا التشريع ، والضرب صفحًا عن محاولات أهل الكتاب إثناء المؤمنين عن الانصياع لشرع الله ، ومن ثم جاءت «من» في قوله ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ لتدل على المبادرة ببداية العمل بالتشريع فور نزوله ، والإعراض عن أراجيف أهل الكتاب ، والسياق كل أطرافه وحواشيه حسمٌ وتأكيدٌ بالغٌ على تباين المواقف ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ

---

(١) درة التنزيل ٢٦٩.

بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾، ثم تذييل الآية ﴿ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ شديدٌ كل الشدة ، حيث الوصف بالظلم في اتباعهم بخلاف تذييل الآيتين الأخريين ، فهو إعلان عن التخلي عن نصرته.

أما الآيتان الأخريان فهما سياق يكاد يكون واحدًا ، هو التحذير من اتِّباع أهل الكتاب بعد ما أنزل على رسوله من العلم؛ لأنَّهم سيعملون على الانحراف بدين الإسلام عن الحق ، ويميلون به إلى ما يرضي أهواءهم ، ويقرب من زيغ عقائدهم ، وذلك دأبهم في كل أحوالهم وأزمانهم ، وليس في تشريع خاص يتطلب تحديد بداية العمل به ، ومن ثم كان سقوط «من» هو الأليق بهذا السياق [1].

وهذه «من» تلقي من ظلالها وإيحاءاتها على نفس المتلقي ما يغمرها بالتقديس والإجلال لبيت الله الحرام ، وعلى البيت ما يُجلِّله مهابةً وإعظامًا ، في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾، فقد كان من الممكن أنْ يأتي النظم هكذا: «وإذ يرفع إبراهيم قواعد البيت» ، لكنَّ العدول إلى ما عليه النظم تضمَّن وجهين من البلاغة؛ أولهما تعريف القواعد بـ«أل» ، وفي ذلك ما يشير إلى أنَّ إبراهيم كان يصدر عن أمر الله في كل لبنة يبنيها ، وفي كل قاعدة يرفعها ، فهي قواعد معهودة محددة المعالم ، لا يتجاوز بها إبراهيم مكانها ، ولا يغفل عن واحدة منها ، والوجه الثاني ذلك التفخيم والتعظيم الذي صحب البيان بعد الإبهام ، والذي يفوت بالإضافة.

---

(١) انظر درة التنزيل ٢٨.

من ومعنى المجاوزة

قال سيبويه عند حديثه عن حرف المجاوزة ، وبعد تمثيله لها بقوله: «أطعمه عن جوع»: «وقد تقع (من) موقعها أيضًا. تقول: أطعمه من جوع ، وكساه من عُرْي» (١).

تلقَّف هذه العبارة بعض النُّحاة والمفسرين ، وتعلَّقوا بها دليلاً على وقوع «من» موقع «عن» ، ومثَّلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ (قريش: ١-٤).

ولا أظن أنَّ إمام النُّحاة قصد أنَّ «من» و«عن» سواء ، ولكنه أراد أنَّ هذا فعل يتعدَّى بحرف المجاوزة وحرف الابتداء ، مع أداء كُلٍّ منهما لمعناه واحتفاظه بخصائصه ، وهذا ما نجده في شرح المفصَّل لابن يعيش: «وتقول: أطعمه من جوع ، وعن جوع ، فإذا جئت بـ(من) كان لابتداء الغاية؛ لأنَّ الجوع ابتداء الإطعام ، وإذا جئت بـ(عن) فالمعنى أنَّ الإطعام صرف الجوع؛ لأنَّ (عن) لما عدا الشيء» (٢).

لكن يبقى بعد صحة التعبيرين وتغاير مدلوليهما أنْ نبحث عن سرِّ إيثار حرف الابتداء في الآية الكريمة ، وأراه متناسبًا تمام التناسب مع مقام يُعدِّد الله فيه نعمه على قريش ، حيث جعلهم سدنة بيت الله الحرام ، وأفاض عليهم من رزقه ما حال بينهم وبين الجوع ، في وقت كان يعاني

---

(١) الكتاب ٤/ ٢٢٦.
(٢) شرح المفصل ٨/ ٤١.

فيه مَنْ حولهم من ضائقة العيش وشدة الجدب ، كما أكرمهم بنعمة الأمن، حيث أشباح الخوف تطارد غيرهم من المقيمين بالبوادي والحضر.

ومن تمام التفضُّل ، وغاية الإنعام ، أنْ يكون الإطعام قبل أنْ يستبدَّ بهم الجوع ، ويترك آثاره عليهم ، وهذا ما تفيده «من» الابتدائية ، دالة على أنَّ الإطعام كان من بداية الجوع ومنشئه ، لا بعد أنْ استبد بهم، وذلك ما لا يؤديه حرف المجاوزة في موضعها ، فالقول بنيابة أحد الحرفين عن الآخر ذهاب عن هذه الفروق الدقيقة ، وتساهل في القول.

وفي قوله تعالى على لسان يعقوب – عليه السلام – آمرًا أبناءه بإعادة البحث عن يوسف وأخيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ (يوسف: ٨٧) ، نقل الألوسي عن ابن الأنباري أنَّ «عن» بمعنى «من»؛ لأنَّه لا يقال: تحسست من فلان ، وإنَّما يقال: تحسست عنه [١] ، وإلى مثله ذهب ابن الجوزي [٢].

وهذا مخالف لما في المعاجم. قال صاحب اللسان: «وتحسَّس الخبر: تطلَّبه وتبحَّثه ، وفي التنزيل: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾. وقال اللحياني: تحسَّس فلانًا ، ومن فلان ، أي تبحَّث» [٣]. وبالرغم من أنَّني لم أجد في المعاجم التي وقعت بين يدي «تحسس عن» فإنَّني أرى صحة التعدية بها أنَّ «من» أقرب إلى بلاغة النظم ، وأقدر

---

(١) انظر روح المعاني ١٣/ ٤٤.
(٢) انظر منتخب قرة العيون النواظر ٢٢٤.
(٣) لسان العرب ٢/ ٨٧١.

على النهوض بمقصده؛ لأنَّها تدل على القرب من الأخبار ، والوصول إلى أدنى الأماكن التي يظن العثور عليهما فيها ، بناءً على ما نقلناه في الفصل السابق من أنَّ «من» تكون لما قرب من الأسماء ، و«عن» تكون لما بعد منها ، كما فرقوا بين «سمعت منه» و«سمعت عنه» بأنَّ الأول يدلُّ على مباشرة السماع ، ومشافهة مصدره ، بخلاف الثاني الذي قد يكون السماع عنه بواسطة.

وجعلها ابن هشام بمعنى «عن» في قوله تعالى ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الزمر: ٢٢) ، ذاهبًا إلى أنَّ تقديره: عن ذكر الله [1].

وليس هذا بالوجه؛ لأنَّ قسوة القلب عن ذكر الله معناها انصرافه عن الله تعالى وعبادته وذكره ، وقسوة القلب من ذكره تدلُّ على أنَّ ذكر الله تعالى هو منشأ القسوة والجمود ، لما أنَّه يقابل منهم بالعصيان والصدود ، فيزدادون كفرًا على كفرهم ، بخلاف مَنْ شرح الله صدره للإسلام ، فإنَّه يطيب قلبه بذكر الله ويزداد نورًا على نوره ، وهو ما دلَّ عليه قوله بعد ذلك ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾(الزمر: ٤٥) ، وكما يدلُّ عليه قوله بعد الآية موضع الحديث مباشرة ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾(الزمر: ٢٣) ، فهؤلاء في مقابلة أولئك يسمعون كلام الله فينشأ من سماعهم قشعريرة جلودهم خوفًا من ربهم ، سرعان ما يعقبها الاطمئنان إلى ذكر الله ، كما أنَّ أولئك يسمعونه فينشأ من سماعهم قسوة قلوبهم وتجمُّدها ، فتأمَّل كيف تعانقت «من» في الآيتين ، واتَّسقتا

---

(١) مغني اللبيب ٦/٢.

في الكشف عن أثر القرآن في قلوب المؤمنين والكافرين.

وذكر كثيرون أنَّها بمعنى «عن» [1] في قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾(الأنبياء: ٩٧).

وقد بنوا ذلك على أنَّ فعل الغفلة أصله أنْ يتعدَّى بـ«عن» ، لكثرة وقوعه مُعدًّى بها ، وكيف أنَّه جاء مُعدًّى بـ«عن» في القرآن ثلاثًا وعشرين مرة ، ولم يتعدَّ بـ«من» إلا في موضعين ، هذا أحدهما ، والثاني قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٠-٢٢).

ذكر صاحب المغني في الآية الأولى رأيًا يذهب إلى أنَّ «من» بمعنى الابتداء بناءً على تعلُّقها بالويل لا بالغفلة. قال: «وقيل هي في هذه الآية للابتداء ، لتفيد أنَّ ما بعد ذلك من العذاب أشد ، وكأنَّ هذا القائل يعلِّق معناها بـ(ويل) ، مثل ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾{فويل للذين كفروا من النار} ، ولا يصح كونه تعليقًا صناعيًّا للفصل بالخبر» [2].

وإذا صحَّ تعلق «من» بالويل في الآية الأولى فليس هناك ما يمكن أنْ تتعلَّق به غير الغفلة في الآية الثانية.

وأرى – والله أعلم – أنَّ «من» على أصل معناها في الآيتين ، وأنَّ الغرض معها تهويل ما رأوه من العذاب ، ومفاجأتهم بما لم

---

(١) انظر المغني ٢/ ١٦، والإتقان ١/ ١٧٦.
(٢) مغني اللبيب ٣١٥، طبعة دار الفكر.

يتوقعوه، و«من» دالة على التبعيض ، مشيرة إلى أنهم لو ذكروا بعض هذا العذاب ما صاروا إلى ما صاروا إليه ، يدلُّ عليه قوله ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، لهول ما شهدت منه.

وليس مصادفةً أنَّ آية «ق» سبقها قوله ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾(ق: ١٩) ، وقد عُدِّي فيه الفعل «تحيد» بـ«من» ، والأصل فيه أنْ يتعدَّى بـ«عن» ، حتى قيل فيه إنَّ «من» بمعنى «عن» كذلك [١] ، وليس كما قيل ، بل هو إشارة إلى أنَّ سكرة الموت بعض من الأهوال المتتابعة التي ستلاحقه ، والتي تعد سكرات الموت أقلَّه وأدناه ، و«من» دالة على التبعيض كأختها في الآية بعدها.

***

من ومعنى الإلصاق

من بليغ النظم الحكيم ، ورائع إعجازه في وضع الحرف موضعه الأليق به ، قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: ٢٣٤).

فأتى بحرف الإلصاق في قوله ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ، ثم جاء بـ«من» في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾(البقرة: ٢٤٠).

---

(١) انظر منتخب قرة العيون النواظر ٢٢٤.

لمَّا كان الحديث في الآية الأولى خاصًّا بحقهنَّ في الزواج بعد انقضاء العِدَّة خصَّ ما يفعلنه في أنفسهن بالأمر المتعارف عليه ، والذي أباحه الشرع ، وهو الزواج ، وعدَّاه بحرف الإلصاق دليلاً على وجوب الالتزام بشرع الله واستصحابه فيما فرض لهن.

وحينما كان الحديث عن عموم حقوق المرأة المتوفى عنها زوجها بعد انقضاء العِدَّة ، وتمتُّعها بحقها في بيت الزوجية وخروجها منه ، والزواج واحد من أمور كثيرة مباحة للمرأة ممَّا شرع الله من حقوق – جاء حرف التبعيض «من» ، مع تنكير «معروف» ، ليدل على أنَّ الزواج أحد هذه الحقوق التي لا تمنع منها.

وهذا من دقائق ما كشف عن الإسكافي فرقًا بين الحرفين. قال: «إنَّ الأول تعلَّق بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ ، أي: لا جناح عليكم في أنْ يفعلن في أنفسهن بأمر الله ، وهو ما أباحه لهن من التزوُّج بعد انقضاء العِدَّة ، فالمعروف ها هنا أمر الله المشهور ، وهو فعله وشرعه وبعث عليه عباده. والثاني المراد به: فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أنْ يفعلن من تزوُّج أو قعود ، فالمعروف ها هنا فعل من أفعالهن ، يُعرَف في الدين جوازُه ، وهو بعض ما لهن أنْ يفعلنه ، ولهذا المعنى خُصَّ بلفظة (من) ونُكِّر ، فجاء المعروف في الأول مُعرَّف اللفظ لما أشرت إليه ، وهو أنْ يفعلن في أنفسهن بالوجه المعروف المشهور الذي أباح الشرع لهن ذلك ، وهو الوجه الذي دلَّ الله عليه وأبانه ، فعرف إذ كان معرفة مقصودًا نحوه ، وكذلك خُصَّ بالباء وهي للإلصاق ، والثاني كان

وجهًا من الوجوه التي لهن أنْ يأتينه فأخرج مخرج النكرة لذلك» [1].

وتأتي «من» بمعنى الباء كما في قوله تعالى ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ (الرعد: ١١) ، على أنَّ المعنى: يحفظونه بأمر الله [2]. «والدليل على أنَّه لابد من المصير إليه أنَّه لا قدرة للملائكة ، ولا لأحد من الخلق على أنْ يحفظوا أحدًا من أمر الله ، وممَّا قضاه عليه» [3] .

هكذا قالوا. وللزمخشريِّ توجيهان لتخريج «من» على أصل معناها في الآية ، لكنَّها في الوجه الأول تدل على التعليل. يقول: « ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ، هما صفتان جميعًا ، وليس من أمر الله بصلة للحفظ ، كأنَّه قيل: له معقبات من أمر الله ، أو يحفظونه من أجل أنَّ الله أمرهم بحفظه ، والدليل عليه قراءة علي – رضى الله عنه – وابن عباس ، وزيد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وعكرمة: يحفظونه بأمر الله، أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ، ومسألتهم ربهم أنْ يمهله رجاء أنْ يتوب وينوب» [4].

وأراني أميل إلى جعل ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ صفةً ثانيةً لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾، كما ذهب إليه الزمخشريُّ في الوجه الأول ، وإنْ كنت لا أتفق معه على جعل «من» سببية تؤدي ما تؤديه باء السببية؛ لأنَّنا نصير حينئذ إلى

---

(١) درة التنزيل ٥٢ ــ ٥٣.
(٢) انظر تأويل مشكل القرآن ٥٧٤، ومجاز القرآن ١/ ٣٢٤، والكامل للمبرد ٣/ ٩٨.
(٣) تفسير الفخر الرازي ١٩/ ١٩.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٥٢.

نفس النتيجة من تناوب الحروف ، وليست قراءة مَنْ قرأ بالباء دليلاً على أنَّها بمعنى الباء؛ لأنَّه ليس بلازم أنْ تتفق القراءتان في مدلولهما ، فهاتان قراءتان سبعيَّتان في قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾(المائدة: ١١٢) ، قرأ السبعة ما عدا الكسائي: «يستطيع ربك» بياء الغيبة ، ورفع لفظ «رب» على الفاعلية ، وقرأ الكسائي: «تستطيع ربك» بتاء الخطاب ، ونصب لفظ «رب» على المفعولية ، وهما معنيان مختلفان ، إذ الأول طلب سؤال ربه؛ لأنَّ الاستفهام فيه بمعنى الطلب ، والثانية على معنى: هل يطيعك ربك ويجيبك على مسألتك [1].

وكذلك الشأنُ في الآية التي نتحدَّث عنها ، فقراءة الباء ، وقراء «من» معنيان مختلفان. و«من» بمعنى الابتداء فيها تدل على أنَّ هذه المعقبات مَبْدؤها ومَنْشؤها أمرُ الله تعالى ، وفي ذلك ما فيه من الدلالة على هيمنة الله على خلقه ، وانصياع جنده من الملائكة لأمره. وجعل ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ صفةً ثانيةً ، يُعدِّد وظائف المعقبات من ملائكة الله ، ولا يقصرها على الحفظ ، إذ إنَّهم كما يحفظونه يرقُبون أعماله ويسجِّلون عليه ، وربما كانت وظيفتهم في التسجيل والمراقبة أهمَّ في سياق الآية ، حيث إنَّ كل ما قبلها يتحدث عن إحاطة علم الله تعالى بخلقه ، وعدم خفاء أمر من أمورهم عليه ، واقرأ دليلاً على ذلك قبل هذه الآية ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ

---

(١) انظر المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة ٢/ ٣٣.

يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الرعد: ٨ – ١١).

فلا شكَّ أنَّ تلاؤم أجزاء النظم يستدعي أنْ يكون قوله ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ ﴾ كالدليل على أنَّه سخَّر مِنْ جُنده مَنْ يرقب حركة خلقه ، ويحصي عليهم أنفاسهم ، ويسجِّل عليهم أعمالهم ، كما أنَّهم يحفظونهم استجابة لأمر الله تعالى.

ومن مواضع التباس «من» بالباء قوله تعالى ﴿ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾(الشورى: ٤٤-٤٥).

قال المرادي نقلاً عن الأخفش: «أي بطرف خفي ، كما تقول العرب: ضربته من السيف ، أي: بالسيف» (١).

ونقل الصبان في حاشيته عن الدماميني والشُّمُنِّي قولهما: «إنْ أريد كونُ الطرف آلةً للنظر فـ(من) بمعنى الباء ، أو مبدأ له ، فهي للابتداء، فهما معنيان متغايران موكولان إلى إرادة المستعمل» (٢).

وبالرغم من أنَّ هذا القول هو الأليق بحكمة الناظم ، والتصرُّف في وجوه الكلام بما يتفق وأغراضه ، واختلاف ضروب المعاني ، فإنَّ ما يؤخذ عليه أنْ تدلَّ «من» على ما تدلُّ عليه الباء ، حيث لا مانع من استعمال ما هو أصيل في معناه ، وكان أولى أنْ يقال: إنْ أريد كون الطرف آلة للنظر جِيء بالباء ، وإنْ ريد كونه مبدأ له جِيء بـ«من» ، وإلا فما الذي أدراني أنَّه أراد الآلة أو المبدأ ، إنْ لم يستعمل كل حرف

---

(١) الجنى الداني ٣١٤.
(٢) حاشية الصبان ٢١٨ – ٢١٩.

في معناه الموضوع له؟

وأقول بعد ذلك: إنَّ بلاغة النظم تقتضي هنا «من» دون الباء ، لتشير إلى أنَّ الظالمين لا يستطيعون أنْ يحرِّكوا الطرف ، وإنَّما ينظرون ببعضه ، وبالقَدْر الذي يُريهم هول العذاب ، وذلك ينسجم تمام الانسجام مع قوله ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ ، حتى إنَّهم من فرط ذُلِّهم لا يستطيعون رفع أبصارهم ، ولا النظر إلا خلسة ، وببعض الطرف ، ويدلُّ عليه وصف الطرف بالخفاء ، شأن المستحيي من رفع بصره ، فأين هذا من معنى الباء ، الذي يدلُّ على اتخاذ الطرف آلة يحرِّكونه لرؤية الأشياء دون ما أشرنا إليه من معاني وشى بها حرف الابتداء؟

ثم لنتأمَّل دلالة «من» في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (يونس: ٥٠) ، وهي التي قال ابن الجوزي إنَّها بمعنى الباء ، وكيف أفادت تعدُّد صنوف العذاب ، واختلاف أشكاله وألوانه ، وكأنَّه يقول: ماذا تصنعون حين يحل بكم ما لا طاقة لكم به من عذاب الله ، ويفاجئكم من ضروب بلائه بين عشية أو ضحاها ، أو كما قال النيسابوري: «والعذاب كله مُرٌّ المذاق ، موجِب للنِّفار ، فأيُّ شيء يستعجلون منه ، وليس شيء منه يوجب الاستعجـــال؟» [1].

وذلك خير ردٍّ على تهكُّمهم وسخريتهم التي حكاها القرآن قبل ذلك، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾(يونس: ٤٨).

---

(١) غرائب القرآن للنيسابوري ١١/ ٨٩.

أمَّا قوله تعالى بعد وقوع العذاب ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾(يونس: ٥١) ، وتعديته بالباء ، فلأنَّ للإلصاق دلالته على أنَّه قد نزل بهم ما استعجلوه ، ووقع بهم ما كانوا يتمنَّون وقوعه ، فهذا موضعٌ ، وذلك موضعٌ آخر ، ولا يصحُّ أبدًا أنْ نحكم على حرف بأنَّه يؤدِّي معنى حرف آخر لمجرد أنَّه تعدَّى بذلك الحرف أكثر منه في مواطن لها سياقاتها ودواعيها.

***

من ومعنى التعليل

من بديع نظم القرآن الكريم مغايرًا بين الألفاظ لاختلاف ضروب المعاني ، وتباين المقاصد والأغراض ، قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴿١٥١﴾ ﴾ (الأنعام: ١٥١) ، فقال: ﴿ مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾ ، ثم جاء في سورة أخرى قوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾(الإسراء: ٢٩ – ٣١) ، فقال ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ ، فقاس المفسرون ذلك على هذا ، وجعلوا «من» في الآية الأولى دالةً على التعليل كما هو في قوله ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾. قال أبوحيان: «(من) هنا سببية ، أي: من فقر ، لقوله: خشية إملاق» [1].

والقول بأنَّها سببية ، تؤدِّي ما يؤدِّيه «خشية» ، ذهابٌ عن الفروق

---

(١) البحر المحيط ٤/ ٢٥١.

التي يتغيَّاها النظم ، بدليل المغايرة في ترتيب الضمائر بين الآيتين ، فحيث كان الإملاق واقعًا بهم ، وتخوَّفوا من زيادته بزيادة الأولاد جاءت «من» دالةً على أنَّ الفقر الواقع بهم كان منشأ إقدامهم على قتل أولادهم، مجسِّدة الخوف والهلع المتمكِّن من قلوب الآباء ، وكأنَّهم بادروا إلى قتل أبنائهم من بداية ما يقال له فقر ، مهما كان ذلك الفقر قليلاً ، والتضييق عليهم ليس شديدًا ، وهو ما يؤكده تنكير «إملاق» ، إيماءً إلى صغره وضعف شأنه. وتناغم ذلك مع تقديم ضمير الآباء وما يومئ به من أنَّ الله قادر على أنْ يبدِّل الفقر الواقع بهم غِنى ، ويغيِّر من أحوالهم بانضمام الأولاد إليهم.

وحيث كان التخوُّف من فقر لم يقع ، وهو ما يدفع الإنسان إلى البخل والشُّح حتى على نفسه ، كما آذن به قوله ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ ، جاءت الخشية لتشير إلى بلاهة المُقْدِمين على قتل أولادهم تخوُّفًا من مشاركتهم أرزاقهم ، والتضييق عليهم بكثرة الأولاد ، فكان لفظ ﴿خَشْيَةَ﴾ متناغمًا كذلك مع تقديم ضمير الأبناء نعيًا عليهم أنْ يدفعهم خوف الفقر إلى قتل من كانوا سيفتحون أبواب الرزق أمامهم ، فالله تعالى خلقهم وأجرى عليهم أرزاقهم في بطون أمهاتهم ، لذا قدَّم رزق الأبناء على رزق الآباء دفعًا لهذا الخوف.

وهذا موضع آخر قال النُّحاة والمفسرون إنَّ «من» فيه للتعليل ، ذلك قوله تعالى حكاية عن قوم نوح ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾(نوح: ٢٥). قال الزمخشريُّ: «تقديم ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ ﴾ لبيان أنْ لم يكن إغراقُهم بالطوفان ، فإدخالهم النار ، إلا

من أجل خطيئاتهم» [1].

وأرى أنَّ «من» تبعيضية ، ولها دلالة بلاغية لا يؤدِّيها سواها ، ذلك أنَّ الله تعالى أراد أنْ يبيِّن كثرة ذنوبهم ، وبشاعة ما اقترفوا من الآثام ، الأمر الذي لم يستطع «نوح» معه طوال ألف سنة إلا خمسين عامًا أنْ يُغيِّر منه ، لعنادهم وانغماسهم في الغي والضلال ، وكأنَّ بعض هذه الخطايا كان كفيلاً أنْ يستوجب غضب الله عليهم ، ويستحقوا معه ما نزل بهم من إغراق في الدنيا ، وإحراق في نار الآخرة ، وذلك ما تشيعه «من» في تركيبها.

وأمَّا قوله تعالى ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾(البقرة: ١٩) ، فليست «من» في قوله ﴿ مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ مزايلةً لمعناها الأصلي من الدلالة على الابتداء إلى معنى التعليل كما قال به كثيرون [2].

ودلالتها على الابتداء هي التي تجسِّد مشاعر الرعب والفزع الذي استبدَّ بالسائرين في هذا الجوِّ المظلم برعوده وبروقه ، وكيف استولى عليهم الخوف حتى كادوا يضعون أصابعهم بكاملها في آذانهم لأول بارقة من الصواعق ، فكيف حين تتوالى عليهم الصواعق وتشتد؟ فالإسراع إلى وضع أصابعهم من بدء الصواعق ، يتعاون فيه معنى الابتداء مع المبالغة بالمجاز المرسل ليرسم صورة مُجسِّدةً للحياة القلقة الوجلة التي يعيشها المنافقون.

وممَّا قيل فيه إن «من» جاءت للتعليل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ

---

(١) الكشاف ٤/ ١٦٤.
(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن ١/ ١٧٦.

قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ ﴾ (البقرة: ٧٤) ، حيث ذهب البعض إلى أنَّ معنى ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾: من أجل خشيته ، و«من» للتعليل.

وأراها بدلالتها على الابتداء تضاعف النعي على بني إسرائيل ، وتزيد من حدة الإنكار عليهم لقسوة قلوبهم إلى هذا الحدِّ الذي تفوق فيه أقسى ما عُرِف من الجمادات بالصَّلابة ، وهو الحجارة ، وعلى طريق الترقِّي في المبالغة من قسوة قلوبهم جاء قوله ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ لتفيد «من» فيه أنَّ هذه الحجارة القاسية تهبط من ابتداء وقوع الخشية ، فكيف لو تمكَّنت منها وتتابعت ووصلت إلى غايتها ، فأيُّ نكيرٍ هذا على قلوب من لحم ودم تقسو كل هذه القسوة في الوقت الذي ترقُّ فيه الحجارة كُلَّ هذه الرِّقة.

***

من ومعنى الاستعلاء

هذا معنى أثبته لـ«من» جمهورٌ كبيرٌ من اللغويين والمفسرين [1]، مستدلين بقوله تعالى ، متحدثًا عن نوح – عليه السلام – : ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾(الأنبياء: ٧٧) ، ذاهبين إلى أنَّ الأصل في فعل النصر أنْ يتعدَّى بـ«على» ، مثل قوله تعالى ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ

(١) انظر فقه اللغة وأسرار العربية ٢٣٧، والأزهية ٢٨٢، والإتقان ١/ ١٧٦.

عَلَيْهِمْ ﴾ (التوبة: ١٤).

وبالرجوع إلى معاجم اللغة نجد أنَّ النصر معناه العون ، وهذا العون قد يكون بتغليبه على خصمه ، أو بمنع خصمه منه ، وفي الحديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا». وتفسيره: أنْ يمنعه من الظلم إنْ وجده ظالمًا ، وإنْ كان مظلومًا أعانه على ظالمه [1].

وحيث كان المراد تغليب طرف على آخر في معركة أو خصومة يُعدَّى الفعل بـ«على» ، كما في آية التوبة السابقة ، وكما في قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(البقرة: ٢٥٠) ، وقوله ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٧).

فها هنا معارك محتدمة ، يحاول كل طرف فيها أنْ يتغلَّب على الآخر ، ومن ثمَّ كان نصر الله فيها يعني إعانتهم بتغليبهم على عدوهم.

أمَّا قوله تعالى ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ فهو موطن المنع والإنجاء؛ لأنَّ نوحًا - عليه السلام - لم يعلن الحرب على قومه ، ولم يكن معه من الجنود والأنصار ما يتصدَّى به لعنت المشركين ، بل كان قومه هم الذين يحاولون استئصاله والقضاء عليه ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾(الشعراء: ١١٦).

---

(١) انظر لسان العرب ٤/ ٤٤٣٩.

وإلى هذا ذهب العز بن عبدالسلام فقال: «النصر إنْ استُعمل بـــ(على) كان بمعنى الغلبة ، نحو ﴿فَأَنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وإنْ استُعمل بـــ(من) كان بمعنى المنع ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾» [1].

يؤيد ذلك أنَّ كل ما جاء من فعل النصر في القرآن مُعدًّى بـــ«من» كان هناك طرفٌ قاهرٌ يُراد منعه من إنفاذ أمره فيمن يتهدَّده ، كما في آية الأنبياء ، وكما في قوله ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ (غافر: ٢٩) ، وقوله ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾(هود: ٣٠).

ويرى صاحب الكشاف أنَّ «نصر» هنا مطاوع «انتصر» ، وكأنَّ المعنى: انتقمنا منهم [2] ، وفرَّق الأساس بين «نصره الله على عدوه» و«نصره من عدوه» ، بأنَّ المتعدِّي بـــ«على» يدل على مجرد الإعانة ، والمتعدِّي بـــ«من» يدل على استتباع ذلك للانتقام من العدو والانتصار عليه [3].

وهو وجه لطيف له ما يدل عليه ، ذلك أنَّ الآية التي قيل هذه الآية صرَّحت بتنجية الله تعالى لنوح ، وذلك هو نصره من عدوه ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ (الأنبياء: ٧٦) ، فما فائدة قوله ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ إلا أنْ يكون زيادةَ بيان بالدلالة على الانتقام منهم ، وقد كان ذلك بإغراقهم،

---

(١) الفوائد في مشكل القرآن ٥٥.
(٢) انظر الكشاف ٢/ ٥٧٩.
(٣) انظر روح المعاني ١٧/ ٧٣.

وهو ما أفاده النيسابوري بقوله: «وزاده بياناً بقوله ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ.... الآية}. تقول: نصرته منه فانتصر ، إذ جعلته منتصرًا منه ، أي منتقمًا»[1].

وممَّا قيل فيه إنَّ «من» تدل على الاستعلاء قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(البقرة: ٢٢٦) ، إذ الأصل في فعل الإيلاء أنْ يتعدى بـــ«على» ، فتقول: آليت على كذا، كما تقول: حلفت عليه ، فلما جاء هنا مُعدًّى بـــ«من» كان ذلك داعيًا للبحث عن سرِّ المخالفة في هذه التعدية. وأيسرُ الآراء أنْ يقال إنَّ «من» بمعنى «على» ، وهناك مَنْ قال إنَّ الفعل ضُمِّن معنى «الامتناع» ، فعُدِّي تعديته ، أو إنَّ «من» للتعليل ، كأنَّ الإيلاء كان بسبب النساء [2].

وقال آخر: إنَّما عُدِّي ههنا بـــ«من»؛ لأنَّه أريد لهم من نسائهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ ، كما يقال: لي منك كذا [3]. وعلى هذا الرأي فليس الجار والمجرور صلة الفعل ﴿يُؤْلُونَ﴾ ، وهذا مردود عليه بحديث أنس بن مالك: أنَّ النبي – صلى الله عليه وسلم – آلى من نسائه شهرًا [4] ، فليس فيه «له».

وعلَّل ابن منظور تعدية الفعل بـــ«من» في الحديث بقوله: «وإنَّما عدَّاه بـــ(من) حملاً على المعنى ، وهو الامتناع من الدخول ، وهو يتعدَّى بـــ(من)» [5].

---

(١) غرائب القرآن ١٤/ ٤٤.
(٢) انظر البحر المحيط ٢/ ١٨١.
(٣) غرائب القرآن للنيسابوري ٢٧/ ٥٤.
(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٣/ ٢٠٠.
(٥) لسان العرب ١/ ١١٧.

وأرى أنَّ الإيلاء إذا عُدِّي بـــ«على» كان الغرض الإضرار بمَنْ وقع عليه الإيلاء ، والإيحاء بظهور المولي ونفوذه وسيطرته ، وحين يُعدَّى بـــ«من» فإنَّه يدل على التولي منه والصدر عنه ، وهذا ما توحي به «من» في الآية الكريمة ، مشيرة إلى أنَّه ولي من امرأته وجافاها ، وكأنَّه أخرجها من قلبه ونفسه ، ولهذا السر يُعدَّى الظِّهار بـــ«من» ، فيقال: ظاهر من امرأته. قال تعالى: {والذين يظاهرون من نسائهم} (المجادلة: ٣) ، وكأنَّ المُظاهِر أعطى ظهره لامرأته وولي منها.

***

من ومعنى الظرفية

من أشهر الأمثلة التي استدلَّ بها القائلون بتبادل حروف الجر مواقعها ومعانيها على دلالة «من» على الظرفية ، قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ (الجمعة: ٩) ، وقوله ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾(التوبة: ١٠٨).

قال الرَّضيُّ: «وأنا لا أرى في الآيتين معنى الابتداء ، إذ المقصود من معنى الابتداء في (من) أنْ يكون الفعل المتعدِّي بـــ(من) الابتدائية شيئًا ممتدًا ، كالسير والمشي ونحوه ، ويكون المجرور بـــ(من) الشيء الذي منه ابتداء ذلك الفعل ، نحو: سرت من البصرة ، أو يكون الفعل المتعدِّي بها أصلاً للشيء الممتد ، نحو: تبرَّأت من فلان إلى فلان ، وكذا: خرجت من الدار ، إذا انفصلت منها ، ولو بأقل خطوة ، وليس التأسيس والنداء حدثين ممتدين ، ولا أصلين للمعنى الممتد ، بل هما حدثان واقعان فيما بعد (من) ، وهذا معنى (في) ، فـــ(من) في الآيتين

بمعنى (في)» [1].

ولنا أن نسأل: إذا كانت «من» بمعنى «في» ، فما سرُّ العدول عن الحرف الأصلي؟

ولِمَ لَمْ يقل: في أول يوم؟ وفي يوم الجمعة؟

إنني أراها في الآيتين على أصلها من الابتداء أو التبعيض ، والتبعيض - كما نقل الرَّضيُّ عن المبرد وعبدالقاهر والزمخشريِّ - راجعٌ إلى معنى الابتداء؛ لأنَّ الدراهم في قولك: «أخذت من الدراهم» مبدأ الأخذ [2].

أمَّا لماذا أوثرت «من» على حرف الوعاء في الآية الأولى؟ فلأنَّ الله تعالى لا يريد من المؤمنين ترك أعمالهم في هذا اليوم ، والانقطاع إلى الصلاة والعبادة ، بل طلب إليهم أنْ يبدأوا يومهم بالعمل ، فإذا سمعوا النداء لصلاة الجمعة من بعض هذا اليوم لبَّوا نداء الله تعالى مسرعين ، فإذا ما فرغوا من صلاتهم بادروا بالعودة إلى أعمالهم.

ألا ترى إلى قوله ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ ، أليس الأمر بالانتشار في الأرض ابتغاءً لفضل الله ورزقه، وتصديره بالفاء المعقبة ، دليلاً على ما يهدف إليه القرآن من أداء هذه الشعيرة في جزء من النهار حتى لا يفهم المسلمون أنَّ احتفاء الإسلام بيوم الجمعة ، ودعوة المسلمين إلى التجمُّع فيه ، واختصاصه بصلاة معينة - مُوجِبٌ لترك العمل في هذا اليوم؟

إنَّ «من» التبعيضية هي وحدها التي تنهض بهذا الغرض ، ولا

---

(١) شرح الكافية ٢/ ٢٩٨.
(٢) انظر شرح الكافية ٢/ ٢٩٨.

يؤدِّي حرف الوعاء ما تؤدِّيه «من» في مكانها ، وذلك ما يتضح من كلام النيسابوري ، حين ردَّ القول بأنَّ «من» في الآية بيانية ، فقال: «إنَّ اليوم أعمُّ من وقت النداء ، والعام لإبهامه لا يصير بياناً ظاهرًا ، فالأولى أنْ تكون (من) للتبعيض» [1].

و«من» في قوله تعالى ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ هي «من» الابتدائية ، ولها دلالاتها في أنَّ هذا المسجد كان منذ اللبنة الأولى التي وُضعت لتأسيسه مصحوبًا بالتقوى ، مبالغةً في صدق النوايا ، وإخلاص العمل لوجه الله ، إبان التفكير فيه ، ومن بداية العمل في بنائه ، فأنت حين تقول: ذهبت إلى الحقل من أول اليوم ، عنيت أنَّ ذهابك كان جد مبكر ، بحيث بدأ ببداية أول اليوم دون أنْ تنصرم منه لحظة من لحظاته ، وإذا قلت: ذهبت إلى الحقل أول اليوم أفدت التبكير نعم ، لكنك لم تستوعب لحظات اليوم من بداية ما يقال له «أول» ، وعليه فإنَّ «من» في الآية دالة على استيعاب وقت الأوَّلية كله، مبالغةً في أنَّ جزءًا ولو يسيرًا من الوقت لم تكن التقوى مفارقة له ، وفي ذلك أبلغ الحسم للمُرْجفين الذين أرادوا الإساءة إلى هذا المسجد ، وحاولوا الإضرار به ، وضرب وحدة المؤمنين ببناء مسجد آخر.

ألا ترى إلى سياق الآية ، وما يحوطه من الحسم البالغ ، والتأكيدات المتتالية على سوء النوايا من المنافقين ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ (التوبة: ١٠٧ –

---

(١) غرائب القرآن ٢٨/ ٥٢.

.(١٠٨

وهذه آية أخرى كثر الاستدلال بها على معنى الظرفية في «من»، أو نيابتها عن حرف الوعاء [١] ، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾(فاطر: ٤٠) ، حيث فسر الكثيرون ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى: في الأرض [٢].

ولا أدري أي ضرورة تدعو إلى مثل هذا القول ، مع وضوح دلالتها على التبعيض ، وانسجامه مع الغرض من نفي الشركاء مع الله تعالى في خلقه ، فالذي يدَّعي أنَّ مع الله إلهًا آخر عليه أنْ يثبت أي جزء من أجزاء الأرض خلقه ، فشارك الله تعالى في خلقه ، وكأنَّه يقول: إنَّ العالم المنظور أرض بما عليها ، وسماء بما فيها ، وهما – لا شكَّ – مخلوقتان ، وإذا أقررتم بأنَّ الله تعالى خالق ، وزعمتم أنَّ معه آلهة أخرى ، فأي أجزاء الأرض خلقها الشركاء؟ والقول بأنَّ «من» بمعنى «في» ينزل بالتحدّي من خلق الأرض وما عليها إلى خلق ما فيها، ويصير المعنى: أي شيء خلق الشركاء في هذه الأرض ، وتصير الأرض ذاتها بمنأى عن هذا التحدّي ، مع أنَّها هي الأدل على عظيم قدرة الله ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾.

ولعل أضعف من ذلك قولهم بدلالتها على الظرفية ، في قوله تعالى ، على لسان صالح – عليه السلام – مخاطبًا قومه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾(هود: ٦١).

---

(١) انظر الجنى الداني ٤١٤، وتأويل مشكل القرآن ٥٧٧.
(٢) انظر معاني الحروف للزجاجي ٧٦.

قال الألوسي: «أي ابتدأ خلقكم منها ، فإنَّها المادة الأولى ، وآدم الذي هو أصل البشر خُلق منها. وقيل: الكلام على حذف مضاف ، أي: أنشأ أباكم. وقيل: (من) بمعنى (في) ، وليس بشيء» [1].

وإذا كان الألوسي قد أحسن في ردِّ هذا القول وتضعيفه ، فإنَّني لا أعرف كيف ساغ لقائليه وهم يقرأون قوله تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (هود: ٥٥) ، وقوله ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ (السجدة: ٧) ، فهل يجوز لهم أنْ يقولوا إنَّ معنى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾: فيها خلقناكم؟

إنَّ النظم الكريم قصد على لسان صالح أنْ يُذكِّر قومه بمبدأ نشأتهم من هذه الأرض ، التي يمشون فيها مختالين ويبطشون جبارين ، بعد أنْ أطال الله أعمارهم فيها فتناسوا بداية خلقهم وخالقهم ، وكأنَّه يقول لهم: خففوا الوطء فما أديم الأرض إلا من هذه الأجساد ، وما أجسادكم إلا من هذا الأديم ، وذلك معنى غير معنى الظرفية ، التي لو جاءت لدلَّت على المكان الذي شهد منشأهم ، واحتضنهم في بداية خلقتهم ، وهو ما لا يهدف إليه النظم الحكيم.

وامتدادًا لهذا التساهل في معاني الحروف ، والتداخل الذي تضيع معه معالمها ، قال المرتضي إنَّها بمعنى الظرفية في قوله تعالى ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾(الأنبياء: ٣٧) ، وقدَّر المعنى: في عجل [2]. ولا أرى ما يدعو إلى ذلك. فقل لي بربك: أيهما أبلغ في الدلالة على تعجُّل الإنسان لما يراه نفعًا له ، والمبالغة في هذه الصفة: أنْ يقال إنَّ العجل

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٨.
(٢) أمالي المرتضي ١/ ٤٦٨.

هو المادة التي صيغ منها خلق الإنسان ، فهو بكل ما فيه من لحم ودم وفكر وقلب مجبولٌ على هذه الطبيعة التي خُلق منها ، أم يقال إنَّه خُلق بالعجلة متمكنًا فيها؟

لا شكَّ أنَّ ما عليه النظم الكريم هو الأبلغ فيما قصد إليه من المبالغة في وصف الإنسان بالعجلة لإحراز ما يظنه ، ولو تريث لعلم أنَّ الخير فيما يختاره الله لا فيما يختاره لنفسه ، ولذلك اختار صيغة المبالغة في هذا الوصف من قوله تعالى ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾(الإسراء: ١١).

***

اللهمَّ اجْعَل عَجَلَتَنا إلى طاعتِك ، ولا تجْعَلْها في معْصِيتِك ، واغْفِرْ لنا ما تجَاوزَنَا به عن مُرادِك ، وأحْسِن جزاءنا فيما هَديتَنا إليه مِن أسْرارِ كتابِك ، إنَّك أنْت العفُوُّ الكَرِيم.